ميزان العمل

تأليف

الإمام الهمام حجة الإسلام أبي حامد محمد
ابن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥

١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م

يطلب من
مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده
بميدان الأزهر بمصر . ت ٤٨٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام الهمام حجة الاسلام زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى رضى الله تعالى عنه وأرضاه لما كانت السعادة التى هى مطلوب الأولين والآخرين لاتنال الا بالعلم والعمل وافتقر كل واحد منهما الى الاحاطة بحقيقته ومقداره ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار وفرغنا منه وجب معرفة العمل المسعد والتمييز بينه وبين العمل المشقى . فافتقر ذلك أيضا الى ميزان . فأردنا أن نخوض فيه ونبين أن الفتور عن طلب السعادة حماقة . ثم نبين أن لاطريق إلى السعادة إلا بالعلم والعمل . ثم نبين العلم وطريق تحصيله . ثم نبين العمل المسعد وطريقه . وكل ذلك بطريقة يترقى عن حد طريق التقليد إلى حد الوضوح لو استقصى بحقيقته وطول الكلام فيه ارتقى إلى حد البرهان على الشروط التى ذكرناها فى معيار العلم . وان كنا لسنا نطول الكلام به ولكن نرشد الى أصوله وقوانينه.

بيان أن الفتور عن طلب السعادة حماقة

السعادة الأخروية التى نعنى بها بقاء بلا فناء . ولذة بلا عناء . وسرور بلا حزن . وغنى بلا فقر . وكمال بلا نقصان . وعز بلا ذل . وبالجملة كلما يتصور أن يكون مطلوب طالب ومرغوب راغب وذلك أبد الآباد على وجه لا تنقصه تصرم الاحقاب والآماد . بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذر وقدرنا طائراً يختطف فى كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنى الذر ولم ينقص من أبد الآباد شىء . فهذا لا يحتاج الى استحثاث على طلبه وتقبيح الفتور

فيه بعد اعتقاد وجوده إذ كل عاقل يتسارع إلى أقل منه ولا يصرف عنه كون الطريق اليه متوعراً ومحوجا الى ترك لذات الدنيا واحتمال أنواع من التعب هنا . فان المدة في احتمال التعب منحصرة والفائت فيها قليل . واللذات الدنيوية منصرمة منقضية . والعاقل يتيسر عليه ترك القليل نقدا في طلب اضعافه نسيئة — ولذلك ترك الخلق كلهم في التجارات والصناعات . وحتى في طلب العلم يحتملون من الذل والخسران والتعب والنصب مايعظم مقاساته طمعا في حصول لذة لهم في المستقبل تزيد على ما يفوتهم في الحال زيادة محدودة فكيف لا يسمحون بترك في الحال لتوصل الى مزايا غير مقدرة ولا محدودة . ولم يخلق في الدنيا عاقل هو حريص على طلب المال كلف بذل الدينار وانتظار شهر ليعتاض منه بعد مضى الشهر الاكسير الأعظم الذى يقلب النحاس ذهبا إبريزاً إلا تسمح نفسه ببذله وإن كان ذلك فواتا في الحال حتى ان من لم يحتمل ألم الجوع مثلا في مثل هذه المدة ليتوصل به إلى هذه النعم الجسيمة لم يعد عاقلا ولعل ذلك لا يتصور وجوده في الخلق مع أن الموت وراء الانسان بالمرصاد . والذهب لا ينفع في الآخرة . وربما يموت في الشهر أو بعد الشهر بيوم فلا ينتفع بالذهب . وكل ذلك لا يفتر رأيه في البذل طمعا في هذا العوض . فكيف يفتر رأى العاقل في مقاساة الشهوات في أيام العمر وأقصاها مائة سنة . والعوض الحاصل عنها سعادة لا آخر لها ولكن فتور الخلق عن سلوك طريق السعادة لضعف إيمانهم باليوم الآخر والا فالعقل الناقص قاض بالتشمير لسلوك طريق السعادة فضلا عن الكامل .

بيان أن الفتور عن طلب الإيمان به أيضا حماقة

أقول أن فتور الإيمان أيضاً مع أنه من الحماقة فليس يقتضى الفتور في سلوك سبل السعادة لولا الغفلة * فان الناس في أمر الآخرة أربع فرق

(فرقة) اعتقدت الحشر والنشر والجنة والنار كما نطقت به الشرائع ، وأفصح عن وصفه القرآن وأثبتوا اللذات الحسية التى ترجع إلى المنكوح والمطعوم والمشموم والملموس والملبوس والمنظور اليه ، واعترفوا بأنه ينضاف الى ذلك أنواع من السرور ، وأصناف من اللذات التى لا يحيط بها وصف الواصفين ، فهى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وان ذلك يجرى أبداً بلا انقطاع ، وأنه لا ينال إلا بالعلم والعمل ، وهؤلاء هم المسلمون كافة؛ بل المتبعون للأنبياء على الأكثر من اليهود والنصارى (وفرقة ثانية) وهم بعض الإلهيين الإسلاميين من الفلاسفة اعترفوا بنوع من اللذة لا تخطر على قلب بشر كيفيتها ، وسموها لذة عقلية ، وأما الحسيات فأنكروا وجودها من خارج ، ولكن أثبتوها على طريق التخيل فى حالة النوم ولكن النوم يتكدر بالتنبه — وذلك لا تتكدر له بل هو على التأبيد ، وزعموا أن ذلك يثبت لطائفة من المشغوفين بالمحسوسات والذين التفات نفوسهم مقصور عليها ولا يسمون إلى اللذات العقلية — وهذا لا يفضى إلى أمر يوجب فتوراً فى الطلب ، فان الالتذاذ انما يقع بما يحصل فى نفس الانسان من التأثر بالملموس والمنظور والمطعوم وغيره ، والشىء الخارج سبب فى حصول الأثر وليست اللذة من الأثر الخارج بل من الأثر الحاصل عند حضور الخارج . فاذا أمكن حصول الأثر فى النفس دون الشىء الخارج كما فى حالة النوم فلا ارب فى الشىء الخارج (وفرقة ثالثة) ذهبوا إلى إنكار اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال . وزعموا أن التخييل لا يحصل إلا بآلات جسمانية والموت يقطع العلاقة بين النفس والبدن الذى هو آلته فى التخييل وسائر الاحساسات . ولا يعود قط إلى تدبير البدن بعد أن اطرحه . فلا يبقى له إلا آلام ولذات ليست حسية ولكنها أعظم من الحسية . فان الإنسان فى هذا العالم أيضا ميله إلى اللذات العقلية . ونفرته

عن الآلام العقلية أشد — ولذلك يكرهون فى الطلب إراقة ماء الوجه ويؤثرون الاحتراز عن الافتضاح والاستتار فى قضاء شهوة الفرج ومقاساة الآلام والمشقات . بل قد يؤثر الإنسان ترك الطعام يوما أويومين ليتوصل به إلى لذة الغلبة فى الشطرنج مع حسيته ولذة الغلبة عقلية . وقد يهجم على عدد كبير من المقاتلين ليقتل ويعتاض عنه ما يقدره فى نفسه من لذة الحمد والوصف بالشجاعة . وزعموا أن الحسيات بالاضافة إلى اللذات الكائنة فى الدار الآخرة فى غاية القصور . ويكاد يكون نسبتها اليها كنسبة ادراك رائحة المطعوم اللذيذ إلى ذوقه ونسبة النظر فى وجه المعشوق الى مضاجعته ومجامعته بل ابعد منه نسبة وزعموا أن ذلك لما بعد عن فهم الجماهير مثلت لهم تلك اللذات بما عرفوها من الحسيات كما أن الصبي يشتغل بالتعلم لينال به القضاء أو الوزارة وهو لا يدرك فى الصبي لذتهما . فيوعد بأمور يلتذ بها كثيراً (كصولجان) يلعب به أو عصفور يعبث به وأمثاله . وأين لذة اللعب بالعصفور من لذة الملك والوزارة . ولكن لما قصر فهمه عن درك الأعلى مثل بالآخر ورغب فيه تلطفا باستدراجه الى ما فيه سعادته . وهذا أيضا إذا صح فلا يوجب فتوراً فى الطلب بل يوجب زيادة الجد . وإلى هذا ذهبت الصوفية والإلهيون من الفلاسفة من عند آخرهم حتى ان مشايخ الصوفية صرحوا ولم يتحاشوا . وقالوا من يعبد الله لطلب الجنة أو للحذر من النار فهو لئيم . وانما مطلب القاصدين إلى الله أمر أشرف من هذا . ومن رأى مشايخهم وبحث عن معتقداتهم وتصفح كتب المصنفين منهم فهم هذا الاعتقاد من مجارى أحوالهم على القطع (وفرقة رابعة) وهم جماهير من الحمق لا يعرفون بأسمائهم ولا يعدون فى زمرة النظار ذهبوا الى أن الموت عدم محض . وأن الطاعة والمعصية لاعاقبة لها . ويرجع الانسان بعد موته إلى العدم كما كان قبل وجوده . وهؤلاء لا يحل تسميتهم فرقة . فان

الفرقة عبارة عن جمع وليس هذا مذهب جمع ولا منسوبا إلى ناظر معروف بل هو معتقد أحمق بطال غلبت عليه شهوته . واستولى عليه شيطانه . فلم يقدر على قمع هواه . ولم تسمح له رعونته بأن يعترف بالعجز عن مقاومة الهوى . فيتعلل لنقصانه بأن ذلك واجب وأنه الحق . ثم أحب أن يساعده غيره فدعا إلى البطالة وما جبلت عليه النفس من اتباع الهوى الذى هو أشد حامل الأحمق على المسارعة الى التصديق به لا سيما وقد يحتال بعض الفسقة بنسبة هذا المعتقد إلى معروف بدقائق العلوم كارسطوطاليس وأفلاطون أو إلى فرقة كالفلاسفة . ويستدرج السامع بأن معرفتك لا تزيد على معرفتهم . قد بحثوا زمانا ما تحصلوا على طائل ولا يشعر ذلك المسكين بتلبيسه فيصدقه لموافقته طبعه ولا يطالبه بالبرهان فى نقل المذهب عمن نقله . ولو أخبره بأثر يتعلق به خسران درهم لكان لا يصدقه إلا ببرهان ولو قال أن أباك أقر لفلان بعشرة الدراهم التى خلفها لك ومعه به سجل فيه خط الشهود لقال ما الحجة فيه وأين الشاهد الحى الذى يشهد به . وأى خبر فى السجل المكتوب وفى نقل الخطوط . ثم يصدقه فى نقل مذهب من سماه من غير شاهدين يشهدان على سماعه . ومن غير عرض خط ذلك المذكور . ومن غير عرض تصنيف من تصانيفه ولو بخط غيره ثم لو سمع ذلك المذكور بإذنه يصرح بذلك لكان ينبغى أن يتوقف فى القبول زاعما أنه لا برهان عليه وان كان أخذه تقليداً . فتقليد الانبياء والأولياء والعلماء بل تقليد الجماهير والدهماء من الخلق أولى من تقليد واحـــد ليس معصوما من الخطأ فأنت الآن أيها المسترشد بعد أن عرفت هذه المعتقدات لا يخلو حالك فى اعتقاد الفرقة الضالة عن أربعة أقسام . اما أن تكون قاطعا ببطلانه أو ظانا لبطلانه أو ظانا لصحته ظنا غالبا ومجوزا لبطلانه بطريق الامكان البعيد أو قاطعا بصحته وكيف ما كنت فعقلك يوجب عليك الاشتغال بالعلم والعمل

والاعراض عن ملاذ الدنيا ان سلم عليك عقلك وصحت خيرتك — وذلك لا يخفى ان كنت قاطعا ببطلانه وان كنت تظن بطلانه غالبا تقاضاك عقلك التشمير فى طلبه كما يتقاضى العقل تجشم المصاعب فى ركوب البحر لطلب الربح . وفى تعلم العلم فى أول الشباب لطلب الرياسة عند من يطلبها . وفى نيل الوزارة أو باب من أبواب الكرامة بمقاساة مقدماتها . وعواقب تلك الأمور مظنونة وليست مقطوعا بها بل إذا غلب على ظن الحريص على الدنيا أن الكيميا له وجود ويحتمل عنده عدمها وعلم أن تعب شهر يوصله اليها ان كان لها وجود ثم يتنعم بها بقية عمره الذى يمكن أن يكون أقل من شهر وأنْ يكون كثيرا تقاضاه عقله أن يحتمل التعب فى ذلك الشهر ويستحقره وان كان معلوماً وعاجلا بالاضافة إلى ما يظنه وان كان آجلا ولم يكن مقطوعا به . وان كنت تظن صحته ظنا غالبا ولكن بقى فى نفسك تجويز صدق الأنبياء والأولياء وجماهير العلماء ولو على بعـــد . فعقلك أيضا يتقاضاك سلوك طريق الأمن واجتناب مثل هذا الخطر الهائل . فانك لو كنت فى جوار ملك وأمكنك أن تتعاطى فى واحد من محارمه مثلا عملا من الأعمال تظن ظنا غالبا أنه يقع منه موقع الرضى فيعطيك عليه خلعة ودينارا ويحتمل احتمالا على خلاف الظن الغالب أنه يقع منه موقع السخط فينكل بك ويفضحك ويديم عقوبتك طول عمرك . أشار عليك عقلك بأن الصواب أن لا تتقحم هذا الخطر فانك إن فعلت وأصبت فزينته دينار لا يطول بقاؤه معك وإن اخطأت فنكاله عظيم يبقى معك طول عمرك فليس تفى ثمرة صوابه بغائلة خطئه . ولذلك إذا وجدت طعاما وأخبرك جماعة بأنه مسموم أو شخص واحد حاله دون حال نبى واحد فضلا عن أن يقدر على التأييد بالمعجزة وغلب على ظنك كذبه عما غلب على ظنك الآن كذب الأنبياء كلهم ولكن جوزت مع ذلك صدقه وعلمت أنه ليس فى أكله

إلا التلذذ بطعمه وحلاوته وقت الذوق وإن كان مسموما ففيه الهلاك . فعقلك أيضاً يشير عليك باجتناب الخطر إن كنت من زمرة العقلاء . ولهذا قال على رضى الله تعالى عنه لمن كان يشاغبه ويماريه فى أمر الآخرة إن كان الامر على ما زعمت تخلصنا جميعاً . وان كان الأمر كما قلت فقد هلكت ونجوت . ولا ينبغى أن تظن أن هذا تشكيك منه فى اليوم الآخر ولكنه زجر على حد جهل المخاطب القاصر عن معرفة ذلك بطريق البرهان وهو الذى جرأنا على سلوك هذا المنهاج ليسهل تأمله على أهل البطالة والتقصير فى الطاعة لله تعالى . وقد تبين على القطع أن العظيم الهائل ان لم يكن معلوماً فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر لان كون الشيء مستحقراً أو عظيما بالاضافة . فلتنظر إلى منتهى العمر وما يصفو من الدنيا للمترفهين وتسير إلى ما اعتقده الفرق الثلاث من كمال السعادة الاخروية ودوامها وتعرف بالبديهة استحقار ما ترك من الدنيا فى عظيم ما يعتاض عنها بالاضافة اليها . وان كنت فى الحالة الرابعة وهى اعتقاد صحة مذهب الفرقة الرابعة فنخاطبك على حد جهلك وقصورك بوجهين (أحدهما) انك لم تعتقد هذا المعتقد ببرهان حقيق ضرورى لا يمكن الغلط فيه حتى يقال تنبهت لنوع من الدليل غفل عنه الأنبياء والاولياء والحكماء وكافة العقلاء . فان الغلط إذا تطرق لهؤلاء مع كثرتهم وغزارة علومهم وطول نظرهم وكثرة معجزات أنبيائهم فبماذا تأمن الغلط فى اعتقادك وما الذى عصمك . وأقل درجاتك أن يجوز الغلط على نفسك . وان احتمل عندك صدق الجماهير وغلطك التحقت بالحالة الثالثة . وان لم تتسع نفسك لهذا التجويز حتى زعمت أنك عرفت بطلان اعتقاد الجماهير واستحالة كون النفس جوهراً باقيا بعد الموت أو معاداً بطريق البعث والنشور كما عرفت أن الاثنين أكثر من الواحد وان السواد والبياض لا يجتمعان . فهذا الآن من سوء المزاج وركاكة العقل ويبعد مثله

هذا الأحمق عن قبول العلاج ولمثل هذا قال الله تعالى فيهم (أولئك كالأنعام بل هم أضل) ﴿ الوجه الثاني ﴾ ان هذه الفرقة وان أنكروا السعادة الاخروية فلم ينكروا السعادة الدنيوية . وأعلى السعادات الدنيوية العزة والكرامة والمكانة والقدرة والسلامة من الغموم والهموم ودوام الراحة والسرور . وهذا أيضا لا يفوز به الإنسان إلا بالعلم والعمل . أما العلم فليس يخفى دوام العز به إذ لا يقبل العزل والابطال بعزل الولاة وابطالهم. ولا يخفى لذة العالم فى علمه وفيما ينكشف له فى كل لحظة من مشكلات الامور لاسيما إذا كان فى ملكوت السموات والأرض والأمور الإلهية وهذا لايعرفه من لم يذق لذة انكشاف المشكلات. ثم انها لذة لانهاية لها لأن العلوم لانهاية لها ولا مزاحمة فيها لأن المعلومات تتسع للطلاب وان كثروا بل استئناس العالم يزيد بكثرة شركائه إذا كان يقصد ذات العلم لا حطام الدنيا ورئاستها . فان الدنيا هى التى تضيق بالمزاحمة بل يزداد سعة بكثرة الطلاب . ثم مع انها أوفى اللذات عند من أنس بها فهى أدومها اذ المتنعم بها عليه هو الله وملائكته ولكن عند اكبابه على الطلب وتجرده له — ولذلك لا ترى عاقلا من الرؤساء والولاة إلا وهم فى خوف العزل يتشوقون أن يكون عزهم كعز العلماء. وأما العمل فلسنا نعنى به إلا رياضة الشهوات النفسانية وضبط الغضب وكسر هذه الصفات لتصير مذعنة للعقل غير مستولية عليه ومستسخرة له فى ترتيب الحيل الموصلة إلى قضاء الاوطار . فان من قهر شهواته فهو الحر على التحقيق بل هو الملك — ولذلك قال بعض الزهاد لبعض الملوك ملكى أعظم من ملكك . فقال كيف قال (من أنت عبده عبدى) وأراد به أنه عبد شهواته . وشهواته صارت مقهورة له فعبد الشهوات العاجز عن كسرها وقهرها رقيق وأسير بالطبع لا يزال فى عناء دائم وتعب متواتر ان قضى وطره يوماً عجز عنه أياماً . ثم لا يخلو فى قضائه عن اخطار وعلائق ومشاق ويضطر إلى

تقلدها . فتقليل الشهوات تقليل لأسباب الغموم ولا سبيل إلى اماطتها إلا بالرياضة والمجاهدة وهو المراد بالعمل فاذاً العالم العامل أحسن الناس حالا عند من رأى السعادة مقصورة على الدنيا . فان الدنيا ليست تصفو لأحد وليس يفى جدواها بشقاقها . فالممعن فى اتباع الشهوات والمعرض عن النظر فى المعقولات شقى فى الدنيا باتفاق . وشقى فى الآخرة عند الفرق الثلاثة إلا عند شرذمة من الحمقى لايؤبه لهم ولا يعبأ بهم ولا يعدون فى جملة العقلاء رأساً . فقد تبين أن الاستعداد للآخرة بالعلم والعمل ضرورى فى العقل . وأن المقصر فيه جاهـــل فان قلت فما بال أكثر الناس مقصرون فيه وهم مؤمنون بالآخرة .

﴿ فاعلم ﴾ أن سبب ذلك الغفلة عن التفكر فى هذه الأمور التى ذكرناها فان تلك الغفلة مطردة عليهم مستغرقة لأوقاتهم لا ينتبهون عنهـا ما دامت الشهوات متوالية وهى كذلك وانما المنبه عليها واعظ زكى السيرة . وقد خلت البلاد عنه وان فرض على تدور لم يلتفت اليه وان التفت اليه ووقع الاحساس به فى الحال وحسن العزم على التجرد للطاعة فى الاستقبال هجمت عقب ذلك شهوة من الشهوات وأزالت أثر التنبيه وأعادت حجاب الغفلة وعاد العاقل لما نهى عنه ولا يزال هكذا شأن كل واحد إلى الموت . وعند ذلك لا يبقى له إلا التحسر بعد الفوت . ولايغنى ذلك عنه شيئا . فنعوذ بالله من الغفلة فانها منشأ كل شقاوة .

بيان أن طريق السعادة العلم والعمل

فان قلت قد اتضح لى أن سلوك سبيل السعادة حزم العقلاء . والتهاون بها غفلة الجهال ولكن كيف يسلك الطريق من لا يعرفه . فبماذا أعلم بأن العلم والعمل هو الطريق حتى اشتغل به فلك فى معرفته طريقان (أحدهما) جملى يناسب المنهاج

السابق وهو أن نلتفت إلى ما اتفق عليه آراء الفرق الثلاث وقد أجمعوا على أن الفوز والنجاة لا تحصل إلا بالعلم والعمل جميعا وان اتفقوا على أن العلم أشرف من العمل. وكأن العمل متمم له وسائق بالعلم إلى أن يقع موقعه ولأجله قال الله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والكلم الطيب يرجع إلى العلم عند البحث فهو الذى يصعد ويقع الموقع. والعمل كالخادم له يرفعه ويحمله. وهذا تنبيه على علو رتبة العلم. ومذهب الفرقة الأولى وهم المتمسكون بالمفهوم الأول للجماهير من ظواهر الشرع غير خاف على ربطه النجاة بالعلم والعمل وبيانه لا يمكن أن يحصى. والصوفية والفلاسفة الذين آمنوا بالله واليوم الآخر على الجملة وان اختلفوا فى الكيفية كلهم متفقون على أن السعادة فى العلم والعبادة. وإنما نظرهم فى تفصيل العلم والعمل والتوقف مع هذا الاتفاق حمق. فمن استولت عليه علة واتفق كتب الأطباء وأقوالهم مع اختلاف أصنافهم على أن النافع لهذه العلة المبردات فتوقف المريض فيه سفه فى عقله بل يقتضى العقل المبادرة اليه. نعم ربما يكون له طريق بعد ذلك الى أن يتحقق ذلك لا عن تقليد للجماهير بل عن تحقيق لحقيقة العلة ووجه مناسبة المبردات لازالتها فينتهض بصيرا إذا نظر واستقل وترقى عن حضيض التقليد والاتباع الى ذروة الاستبصار — فكذلك قد ادعى الصوفية وفرق سواهم أنه يمكن الوصول إلى درك ذلك بالبصيرة والتحقيق وذلك أن تعرف حقيقة الموت وانه يرجع إلى خروج الآلة عن الصلاح للاستعمال لا إلى انعدام المستعمل (ثم تعلم) أن سعادة كل شىء ولذته وراحته فى وصوله الى كماله الخاص به (ثم تعلم) أن الكمال الخاص بالانسان هو إدراك حقيقة العقليات على ما هى عليه دون المتوهمات والحسيات التى يشاركه الحيوان فيها (ثم تعلم) أن النفس بالذات متعطشة اليه. وبالفطرة مستعدة له. وإنما يصرفها عنه اشتغالها بشهوات البدن وعوارضه مهما استولت عليه ومهما كسر الشهوة

وقهرها وخلص العقل عن رقها واستعبادها إياه . واكب بالتفكر والنظر على مطالعة ملكوت السموات والأرض بل على مطالعة نفسه وما خلق فيها من العجائب فقد وصل إلى كماله الخاص . وقد سعد فى الدنيا إذ لا معنى للسعادة إلا نيل النفس كمالها الممكن لها وان كانت درجات الكمال لا تنحصر ولكن لا يشعر بتلك اللذة ما دام فى هذا العالم ممنوعاً بالحس والتخيل وعوارض النفس كالذى عرض للمطعم الالذ وفى ذوقه خدر فيزول فيشعر باللذة المفرطة . فالموت مثل زوال الخدر فقد سمعت مقدما من متبوعى الصوفية يصرح بأن السالك الى الله تعالى يرى الجنة وهو فى الدنيا والفردوس الأعلى معه فى قلبه إن أمكنه الوصول اليه وإنما الوصول اليه بالتجرد عن علائق الدنيا والاكباب بجملة همته على التفكر فى الأمور الالهية حتى ينكشف له بالالهام الالهى جليا — وذلك عند تصفية نفسه عن هذه الكدورات . والوصول إلى ذلك هو السعادة والعمل هو المعين على الوصول اليه . فهؤلاء فرقة ادعوا المعرفة بمناسبة العلم والعمل للسعادة — فهذا هو المنهج الثانى فى الوصول الى اليقين . فما قالوه سديد وهو بزعمهم لا يعرف الا بالمجاهدة والرياضة كما قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فعليك بالمجاهدة والتجرد للطلب . فربما ينكشف لك حقيقة الحال بالنفى أو الاثبات ويكفيك فى الشروع فى العلم والعمل اتفاق الثلاثة عليه إذ لم يكن غرضك من السؤال الجدال بل كان غرضك طلب الفوز كالمريض الذى يطلب الشفاء دون الجدال إذ بغيته اتفاق أصناف الأطباء فيه .

باب تزكية النفس وقواها واخلاقها على سبيل المثال والاجمال

فان قلت قد اتضح لى أن الاشتغال بالعلم والعمل واجب ولكن العلوم كثيرة وكذلك الاعمال فهى مختلفة بالنوع ثم المقدار . وليس يكفى العلم بأن العلة يلائمها المبردات ما لم يعلم نوع المبرد وقدره ووقت استعماله فى الموالاة

أو التفريق الى غير ذلك مما يتطرق الى تفاصيل اضطرارية فلا بد من بيان النوع وبيان الكمية ثم الكيفية فى الاشتغال به .

(فاعلم) أن الناس فيما سألته فريقان . قانع بالتقليد وهو مستغن عن البحث ولكن ينهج السبيل الذى رسمه له مقلده . وفريق آخر لا يقلدون تقليد المريض للطبيب بل يتشوقون الى أن ينالوا رتبة الأطباء . والخطب فى هذا عظيم والمدى طويل وشروط هذا الامر لا تظهر فى الاعصار الا لواحد فرد شاذ . ولكنا ننبئك بما يرقيك عن حضيض التقليد ويهديك الى سواء الطريق . فان ساعدك التوفيق وانبعث من نفسك داعية الاستتمام توصلت اليه بالمجاهدة ولا يمكنك معرفة ما تطلبه الا بأن تعرف أولا نفسك وقواها وخواصها فكيف يشتغل بمخالطة زيد من لا يعرف زيدا والمجاهدة معالجة للنفس بتزكيتها لتفضى الى الفلاح كما قال الله تعالى (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) ومن لم يعرف الثوب لا يتصور منه ازالة وسخه . ولما كان ملاك الأمر معرفة النفس عظم الله أمره ونسبه الى نفسه تخصيصا واكراما فقال تعالى (انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى) فنبه على أن الانسان مخلوق من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالعقل والبصيرة لا بالحواس وأضاف جسده الى الطين وروحه الى نفسه وأراد بالروح ما نعنيه بالنفس منها لأرباب البصائر ان النفس الانسانية من الامور الآلهية وأنها أجل وأرفع من الاجسام الخسيسة الارضية ولذلك قال تعالى (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وقيل كان فى كتب الله المنزلة إعرف نفسك يا انسان تعرف ربك وقال عليه السلام (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) وقال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) تنبيها على تلازم الأمرين وان نسيان أحدهما مع نسيان الآخر ولذلك قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وقال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون)

وما أراد به ظاهر الجسد فان ذلك يبصره البهائم فضلا عن الناس وعلى الجملة من جهل نفسه فهو بغيره أجهل ومن رحمة الله على عباده ان جمع فى شخص الانسان على صغر حجمه من العجائب ما يكاد بوصفه يوازى عجائب كل العالم حتى كأنه نسخة مختصرة من هيئة العالم ليتوصل الانسان بالتفكر فيها الى العلم بالله عز وجل فان قلت فصف لى من أمر النفس جملة مشوقة الى التفصيل ان لم تقدر على استقصاء القول فيه حذرا من التطويل (فاعلم) ان للنفس الحيوانية بالجملة قوتين أحدهما محركة والاخرى مدركة والمحركة قسمان باعثة ومباشرة للحركة فالمباشرة للحركة هى القوة التى تنبعث فى الأعصاب والعضلات ومن شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات المتصلة بالاعصاب الى نحو جهة المبدأ أو ترخيها فتصير الأعصاب والرباطات الى خلاف جهة المبدأ وهذه خادمة للحركة الباعثة . والمراد بالباعثة القوة النزوعية الشوقية التى تبعث على الحركة مهما حصل فى الخيال صورة شىء مطلوب أو مهروب عنه فتحمل القوة المباشرة للحركة على التحريك ولهذه الباعثة شعبتان شعبة تسمى شهوانية وهى تبعث على تحريك يقرب من الاشياء التى يعتقدها صاحبها ضرورية أو نافعة طالبا للذة والأخرى تسمى غضبية وهى قوة تبعث على تحريك يدفع به الشىء الذى يعتقد فيه أنه ضار أو مفسد طالباً للغلبة (وأما المدركة) فقسمان ظاهرة وباطنة أما الظاهرة فهى الحواس الخمس ولسنا نخوض فى تحقيقها وان كان القول فى معرفة حقائقها طويلا جدا ولكن غرضنا ذكر الجملة . وأما الباطنة فخمسة الأولى الخيالية وهى التى تبقى فيها صور الأشياء المحسوسة بعد غيبتها فان صورة المرئى يبقى فى الخيال بعد تغميض العين فتلك القوة التى فيها انطبعت صورة المرئى تسمى خيالية وتسمى حسا مشتركا إذ يبقى فيه أثر مدركات الحواس الخمس كلها . الثانية الحافظة لذلك فان ما يمسك الشخص به صورة الشىء غير ما يقبله به والشمع

يمسك النقش بيبوسته ويقبله برطوبته والماء يقبله ولا يمسكه وهذه القوى أعنى القابلة لمدركات الحواس الخمس والحافظة لها فى التجويف الأول من مقدم الدماغ فهو مسكنها وبحلول آفة فيه تختل هذه القوة وعرف ذلك بعلم الطب (الثالثة) القوة الوهمية وهى قوة مترتبة فى نهاية التجويف الأوسط من الدماغ يدرك معانى غير محسوسة من المحسوسات الجزئية كالقوة الحاكمة فى الشاة بأن الذئب مهروب عنه وان الولد معطوف عليه (الرابعة) الحافظة لهذه المعانى التى ليست محسوسة كما كانت الثانية حافظة للصور فهى حافظة للمعانى وتسمى ذاكرة ومسكنها التجويف المؤخر من الدماغ ولقد بقى الأوسط وهو مسكن القوة المفكرة وهى مرتبة بين خزانة الصور وخزانة المعانى وشأنها ان تركب بعض ما فى الخيال مع بعض وتفصل بعضها عن بعض بحسب الاختيار والعادة جارية بذكر هذا فى القوى المدركة والأولى أن يذكر فى جملة القوى المحركة اذ ليس لها ادراك شىء الا بنوع حركة بتفصيل مركب وتركيب مفصل مما هو حاصل فى الخيال ولا يقدر على وضع شىء مستجد ليس هو موجودا فى الخيال بحال إلا بمجرد التفصيل والتركيب . وهذه القوى التى ذكرناها يشارك فيها الحيوانات الانسان الا المفكرة فان فى الحيوانات شيأ يقاربه يسمى المتخيلة ولا تنتهى قوته إلى حد قوة المتفكرة فى الانسان (وأما النفس الانسانية) من حيث هى انسانية فينقسم قواها الى قوة عالمة وقوة عاملة وقد تسمى كل واحدة منهما عقلا ولكن على سبيل الاسم المشترك اذ العاملة سميت عقلا لكونها خادمة للعالمة مؤتمرة لها فيما ترسم فأما العاملة فهى قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الانسان الى الافعال المعينة الجــــزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العالمة النظرية التى سنذكرها وينبغى أن يكون سائر قوى البدن مقموعة مغلوبة دون هذه القوة العلمية بحيث لا تنفعل هذه القوة عنها

وتلك القوى كلها تسكن وتتحرك بحسب تأديب هذه القوة واشارتها فان صارت مقهورة حدثت فيها هيآت انقيادية للشهوات تسمى تلك الهيآت أخلاقا رديئة وإن كانت متسلطة حصلت لها هيئة استيلائية تسمى فضيلة وخلقا حسنا ولا يبعد أن يجعل الخلق اسما لما يحصل فى سائر الشهوات والقوى من الانقياد والتأدب أو هذه القوة من الاستيلاء والتأديب وبالجملة لا يبعد أن يكون الخلق واحداً وله نسبتان اذ هيئة الاستيلاء من هذه القوة يلازمها هيئة الانقياد من سائر القوى وهو المراد بالخلق المحمود . وبالجملة فالنفس أعز من أن يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بالعقل أو يستدل عليها بآثارها وأفعالها ولها نسبتان نسبة إلى الجنبة التى تحتها ونسبة الى الجنبة التى فوقها ولها بحسب كل جنبة قوة بها ينتظم العلاقة بينها وبين تلك الجنبة فهذه القوة العملية هى القوة التى لها بالقياس إلى الجنبة التى دونها وهى البدن وتدبيره وسياسته وأما القوة العالمة النظرية التى سنذكرها فهى لها بالقياس الى الجنبة التى فوقها لتنفعل وتستفيد منها أعنى بالجنبة الملائكة الموكلة بالنفوس الانسانية لافاضة العلوم عليها فان العلوم انما تحصل فيها من الله تعالى بواسطة قال الله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) فكأن للنفس منا وجهين وجه إلى البدن ويجب أن يكون هذا الوجه مستوليا غير قابل البتة ولا منفعل عن عوارض البدن وشهواته ووجه الى الجنبة الشريفة العالية ويجب أن يكون هذا الوجه دائم القبول عما هنالك مستمدا التأثير فانها مهبط أسباب سعادته وهذه القوة النظرية العالمة هى التى من شأنها أن تتلقى المعانى الكلية المجردة عن العوارض التى تجعلها محسوسة جزئية كما ذكرنا معنى الكلى فى كتاب معيار العلم ثم هذه القوة بالنسبة إلى العلوم التى تحصل فيها على ثلاث مراتب (أولاها) كنسبة حال الطفل الى الكتابة فان الطفل فيه قوة للكتابة ولكن قوة بعيدة

من الفعل فكذا قوة العلم له (المرتبة الثانية) أن يحصل فيها جملة من المعقولات الأولية الضرورية كحال الصبي المميز المراهق للبلوغ ويكون نحو هذه القوة للصبي بالاضافة الى الكتابة بعد أن عرف الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فانه لم يكن كذلك في المهد اذ ليس فيه على الكتابة الا قوة مطلقة بعيدة عن الفعل (المرتبة الثالثة) أن تحصل المعقولات الكسبية كلها بالفعل وتكون كالمخزونة عنده فاذا شاء رجع اليها ومهما رجع تمكن منها وحاله في العلوم حال الكاتب الحاذق الصانع الغافل عن الكتابة فانه مستعد لها بالقوة القريبة استعداداً في غاية الكمال وهذه نهاية الدرجة الانسانية ولكن في هذه الرتبة درجات لا تحصى تختلف بكثرة المعلومات وبقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها وانها تحصل بالإلهام الالهي وبتعلم اكتساب وانه سريع الحصول أو بطيء الحصول وفي هذا العلم تتباين منازل العلماء والحكماء والأولياء والأنبياء وبحسب التفاوت فيه تتفاوت مناصبهم ودرجات الرقي فيه غير محدودة ولا محصورة وأقصى الرتب درجة النبي الذي ينكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف الهي في أسرع وقت وهذه هي السعادة التي تحصل للانسان تقربه الى الله تعالى تقريبا لا بالمكان والمسافة ولكن بالمعنى والحقيقة والأدب يقتضي قبض عنان البيان في هذا المقام فقد انتهى الأمر بطائفة الى أن ادعوا اتحاداً وراء القرب فقال بعضهم سبحاني ما أعظم شأني وقال آخر أنا الحق وعبر آخر بالحلول وعبر النصارى باتحاد اللاهوت والناسوت حتى قالوا في عيسى صلوات الله عليه أنه نصف الله . تعالى الله عن قول الظالمين علواً كبيراً وبالجملة فمنازل السائرين الى الله تعالى لا تنحصر وإنما يعرف كل سالك المنزل الذي قد بلغه في سلوكه فيعرف ما خلفه من المنازل فاما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته الا بطريق الجملة والإيمان بالغيب فلا يعرف حقيقة النبوة الا النبي وكما لا يعرف الجنين

حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما انفتح له من العلوم الضرورية ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فلا يعرف عاقل ما انفتح لأولياء الله وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته (وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) فهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود الالهي غير مضنون بها على أحد ولكن لا بد من الاستعداد للقبول بتذكية النفس وتطهيرها عن الخبث والكدورة وكما أن الصورة المتلونة ليس فيها منع من أن تنطبع فى الحديد الخبيث الا الحجاب من جهة الحديد فى صدئه وخبثه وافتقاره الى صيقل يجلوه ويزيل خبثه ويجليه فهكذا ينبغى أن تعتقد أن الحجاب من جانبك لا من جانب الرحمة الالهية ولذلك قال عليه السلام (إن لربكم فى أيام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها) ولذلك عبر عن غاية الجود والبذل من ذلك الجانب بأدل العبارات على الشوق والرغبة فقال (ينزل الله كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من داع فأستجيب له . هل من مسترحم فأرحمه) وقال (طال شوق الابرار الى لقائى وأنا إلى لقائهم أشد شوقا) وقال (من تقرب إلى شبراً تقربت اليه ذراعاً ومن أتانى يمشى أتيته هرولة) وعليك أن تستقرىء من القرآن والأخبار ما يناظر ذلك [1] فانه خارج عن الحصر والاحصاء .

بيان ارتباط قوى النفس بعضها ببعض

اعلم أن هذه القوى متفاوتة الرتب فان بعضها أريدت لنفسها وبعضها أريدت لغيرها وبعضها خادمة وبعضها مخدومة والرئيس المطلق منها هى التى تراد لنفسها وتراد غيرها لها وليس ذلك إلا الرتبة الأخيرة وفيها تتفاوت

---

(١) فمن الاخبار (لا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه الحديث) ومنها لولا أن الشياطين تحوم حول قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات والارض .

رتب الأولياء والأنبياء فان الإنسان لم يخلق إلا لما هو من خاصيته وما عدا القوى المخصوصة بالنفس الانسانية يشاركها فيها الحيوانات فان الانسان خلق على رتبة بين البهيمة والملك وفيه جملة من القوى والصفات فهو من حيث يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على حائط وانما خاصته التى لاجلها خلق قوة العقل ودرك حقائق الأشياء فمن استعمل جميع قواه على وجه التوصل بها إلى العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا وكما قال (ان هذا إلا ملك كريم) ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما يأكل الانعام فقد نزل إلى أفق البهائم فيصير اما غمراً كثور واما شرها كخنزير واما صرعة ككلب واما حقوداً كجمل أو متكبراً كنمر أو ذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد . وبالجملة من تصفح القوى التى ذكرناها عرف أن مقتضيات العقل من أرفعها وأعلاها فينظر بعين التعجب كيف يخدم بعضها لبعض خدمة ضرورية عليها فطرت ولا تستطيع مخالفة أمر الله تعالى فيها فان العقل هو الرئيس المخدوم ويخدمه وزيره وهو أقرب الأشياء اليه وهو العقل العملى الذى سميناه قوة عاملة بحسب مراسم العقل لأن العقل العملى لأجل تدبير البدن والبدن آلة النفس ومركبها يقتنص به بواسطة الحواس مبادىء العلوم التى تستنبط منها حقائق الأمور ثم العقل العملى يخدمه الوهم والوهم يخدمه قوتان قوة بعده وقوة قبله . فالقوة التى بعده هى القوة الحافظة لما أدركه وأداه اليه والقوة التى قبله هى جميع القوى الحيوانية على الترتيب الذى سنذكره ومن جملتها المتخيلة أعنى المفكرة ويخدمها قوتان مختلفتا المأخذ فالقوة الرغبية الشوقية تخدمها بالانبعاث لأن انبعاثها الى الحركة (١) بالتخيل والفكر والقوة

---

(١) هكذا بالاصل ولعل الاصح لان انبعاثها إلى التحريك فان الشوقية تبعث على التحريك لا انها تصدر بمباشرة الحركة الجسمانية فتدبر انتهى مصححه .